

كتاب الحداد

The Book of Mourning

ترجمة ب. حسيب شحادة
جامعة هلسنكي

في ما يلي ترجمة عربية لهذه القصة، التي رواها الكاهن خضر بن إبراهيم بن خضر الكاهن الحفتاوي (هكهن فنحاس بن أبراهام بن فنحاس هحقتني، ١٩٢٣-١٩٩٢، شاعر ومعلم دين (شريعة)، مرتل ومترجم لتلاوة التوراة، عمل شماساً في كنس نابلس وحولون، انتقل مع عائلته إلى حولون عام ١٩٦٧) بالعبرية على مسامع الأمين (بنيامين) صدقة (١٩٤٤-)، الذي بدوره نقحها، اعتنى بأسلوبها ونشرها في الدورية السامرية أ. ب. أخبار السامرة، عدد ١٢٤٢-١٢٤٣، ١٦ تموز ٢٠١٧، ص. ٧١-٧٣. هذه الدورية التي تصدر مرتين شهرياً في مدينة حولون جنوبي تل أبيب، فريدة من نوعها - إنها تستعمل أربع لغات بأربعة خطوط أو أربع أجدديات: العبرية أو الآرامية السامرية بالخط العبري القديم، المعروف اليوم بالحروف السامرية؛ العبرية الحديثة بالخط المربع/ الأشوري، أي الخط العبري الحالي؛ العربية بالرسم العربي؛ الإنجليزية (أحياناً لغات أخرى مثل الفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغال) بالخط اللاتيني.

بدأت هذه الدورية السامرية في الصدور منذ أواخر العام ١٩٦٩، وما زالت تصدر بانتظام، تُوزع مجاناً على كل بيت سامري في نابلس وحولون، قرابة الثمانمائة سامري، وهناك مشتركون فيها من الباحثين والمهتمين في الدراسات السامرية، في شتى أرجاء العالم. هذه الدورية ما زالت حية تُرزق، لا بل وتتطور بفضل إخلاص ومثابرة المحررين، الشقيقين، الأمين وحسني (بنيامين ويفت)، نجلي المرحوم راضي (رتسون) صدقة (٢٢ شباط ١٩٢٢-٢٠ كانون الثاني ١٩٩٠).

”مقدمة

استمعت إلى هذه القصص القصيرة الثلاث التالية في أوقات متباعدة على لسان القاصين الثلاثة المذكورة أسماؤهم لاحقاً، وسجلتها إثر سماعها بفترة وجيزة، وهي تدور حول شخصية مركزية واحدة: الكاهن إبراهيم بن خضر بن إسحق اللاوي الحفتاوي (أبراهام بن فنحاس بن يتسحاك هليقي هعقتني، ١٨٧٨-١٩٤٠). إبراهيم الكاهن كان أحد أعضاء الهيئة التدريسية في المدرسة التي أسسها المحسن الأمريكي تشارلز وارن. وكان الكاهن إبراهيم ذا تقليد من الدرجة الأولى وسامريون كثر تعلموا منه الشعر والصلاة. كما عمل لسنوات كثيرة جزّاراً في الطائفة وشماساً بارعاً ومرنماً مطلوباً لعذوبة صوته. وقد رثاه شقيقه الكاهن الأكبر توفيق بن خضر (متسليح بن فنحاس) عند موته بعمر اثنين وستين عاماً وحزن عليه حزناً شديداً و”لحقه” بعد ذلك بثلاث سنوات.

لا أمر من الموت

من يحب الموت على الإطلاق؟ أئمة من يريد الموت إطلاقاً؟ ولكن لا بد من التعمد على كل شيء وعلى الحقيقة أيضاً بأن الموت نهاية كل حي. أبي الكاهن إبراهيم مات شاباً، ابن اثنين وستين عاماً فقط. وجدّي خضر أيضاً غادر هذه الدنيا بعمر ثمانية وخمسين عاماً، ١٨٤٠-١٨٩٨. وهناك أسباب كافية تجعلنا جميعاً نكره الموت. الله منحنا إمكانية الاختيار بين الموت والحياة، وقطعاً نحن أحياء نرزق فإننا نزدري الموت، إلا أنه أت في آخر المطاف، كما قال أحد

حُكْمَانَا: كُلُّ مَا يَفْكَرُ بِهِ الْإِنْسَانُ بِيَطْلُهُ الْمَوْتَ. بِاسْتِطَاعَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَضَعَ خَطَطًا مَتْنُوعَةً وَلَكِنْ وَعَلَى حِينِ غَرَّةٍ وَيَدُونَ أَيَّ إِبْلَاحٍ مَسْبُوقٍ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مُبْقِيًا أَقْرَبَاءَهُ مَذْهُولِينَ مَتَأَلِّينَ. مَهْمَا التَّفَقْنَا هُنَا وَهُنَا فَإِنَّا نَجِدُ دَائِمًا أَنَّ هُنَاكَ سَبَبًا مَا لِلْمَوْتِ. لَا أَحَدٌ يَفَارِقُ الْحَيَاةَ هَكَذَا، ثَمَّةَ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ.

مَا لَا أَفْهَمُهُ بِالْمَرَّةِ هُوَ مَوْقِفُ بَعْضِ أَبْنَاءِ طَائِفَتِنَا حِيَالَ كِتَابِ الْجِدَادِ. هَلْ تَسْنَى لَكَ أَنْ تَرَى صُدُورَ بَعْضِ الْعَشْرَاتِ مِنْ كِتَابِ الصَّلَاةِ وَمِنْ أَسْفَارِ مَقْدَسَةِ أُخْرَى؟ كِتَابُ الْجِدَادِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا. إِسْأَلْنِي مَا السَّبَبُ لِأُحْبِبُكَ! بِسَبَبِ الْإِعْتِقَادِ التَّافِهِ لَدَى بَعْضِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا أَنَّهُ كَلَّمَا قَلَلْنَا مِنَ التَّطَرُّقِ وَالإِنْتِشَالِ بِمَا يُمْتُّ بِالْمَوْتِ بِصَلَةِ، كَلَّمَا قَلَّ حُلُولُ الْمَيِّتِ عَلَيْنَا. هُوَذَا هُرَاءَ هُرَاءَ. فِي الْمَحْصَلَةِ يَنْبَغِي إِصْدَارُ كِتَابِ الْجِدَادِ كَيْ يَتَعَلَّمَ الشَّبَابُ كَيْفَ نَتَعَامَلُ مَعَ الْجِدَادِ فِي الطَّائِفَةِ، وَالْكِتَابِ صَغِيرٍ أَيْضًا.

عِنْدَمَا مَاتَ خَالِي عَابِدُ صَدَقَةَ (عَوْقَادِيَا تَسْدُكِهِ)، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَرَّرْتُ أُخِيرًا قَائِلًا مَاذَا سَيُحْدِثُ إِذَا نَسَخْتُ الْكِتَابَ لِي؟ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ اسْتَعْرَقَ هَذَا النِّسْخُ فِي ظَنِّكَ؟ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ!، نَعَمْ ثَلَاثَةَ، ”شَوْ فِي“، لَتَكُنْ بِحُوزَتِي نَسْخَةٌ مِنْ كِتَابِ الْجِدَادِ فِي الْبَيْتِ. عِنْدَمَا أَشَاهَدُ بَعْضَ شَبَابِنَا جَالِسِينَ كَالْيَكْمِ فِي مَرَامِ الْجِدَادِ أَعْلَمُ أَنَّ لَا أَحَدًا مِنْهُمْ قَدْ أَمْسَكَ الْكِتَابَ بِيَدِهِ وَلَمْ يَرَهُ أَيْضًا.

هَا هُوَ صَدِيقِي رَاضِي صَدَقَةَ (رَتْسُونُ تَسْدُكِهِ) كَانَ قَدْ أَرَانِي قَبْلَ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ تَحْرِيرَهُ لِكِتَابِ الْجِدَادِ بِغِيَةِ إِصْدَارِهِ. وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلْنِي لِمَاذَا أَجَّلَ الإِصْدَارَ كُلَّ هَذِهِ السِّنَوَاتِ. حَسَنًا، مَاذَا كُنْتُ أَنْوِي سِرْدَهُ عَلَيْكَ؟ آه، نَعَمْ، عَنْ أَبِي الْكَاهِنِ إِبْرَاهِيمِ وَجَدِّي خَضَرَ. لَسْنَا بِصَدَدِ قِصَّةِ رَأَيْتَهَا بِأَمِّ عَيْنِي وَلَكِنْ أَبِي أَحَبُّ دَائِمًا أَنْ يَحْكِيَ لِي عَنْ جَدِّي هَذِهِ الْحِكَايَةَ الْقَصِيرَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِسَفَرِ الْجِدَادِ، أَوْ كَمَا اعْتَدْنَا الْقَوْلَ بِالْعَرَبِيَّةِ كِتَابِ الْكِرْهِ.

يَقِينًا، قَدْ سَمِعْتُ عَنْ جَدِّي خَضَرَ. مَاتَ قَبْلَ وِلَادَتِي بِسِنِينَ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنْ تَكَلَّمُوا عَنِ الْكَمِّ الْهَائِلِ مِنَ الْأَشْعَارِ وَالنَّفَاسِيرِ وَالْمَدْرَاشِيمِ الَّتِي خَلَّفَهَا وَرَاءَهُ. أَضْفِ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ نَسَخَ كِتَابًا كَثِيرَةً، وَكِتَابِ الْكِرْهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِهَا. ابْتَعَدَ جَدِّي خَضَرَ دَوْمًا عَنِ كِتَابِ الْكِرْهِ. لَمْ يُرِدْ نَسْخَهُ. لَمْ يَنْوِ لِمَسْ أَيْ شَيْءٍ ذِي صِلَةٍ بِالْمَوْتِ. أَحَبُّ الْحَيَاةِ. فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ مِّنْ مِنَّا لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ؟

كَانَ وَالِدِي إِبْرَاهِيمُ ابْنَ عَشْرِينَ رِبْعًا عِنْدَمَا تَبَيَّنَ مِنْ أَبِيهِ، لِأَنَّ جَدِّي مَاتَ صَغِيرَ السِّنِّ، بِالْكَادِ بَلَّغَ ثَمَانِيَةَ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَمَعَ ذَلِكَ تَمَكَّنَ مِنْ إِجْزَاءِ الْكَثِيرِ فِي حَيَاتِهِ. كُلُّ أَبْنَاءِ جَدِّي، أَعْمَامِي وَأَبِي قَدْرُوهُ كَثِيرًا وَصَانَاوُ شَرْفَهُ. فِي الْوَاقِعِ كَانَ أَبِي الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ يَجْرُو عَلَى قَوْلِ شَيْءٍ مَا بِحُضُورِهِ.

كَانَ أَبِي بِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سَنَةٍ يَسْأَلُ جَدِّي بِاسْتِمْرَارٍ، لِمَاذَا لَا وَجُودَ لِكِتَابِ الْكِرْهِ وَاحِدٍ ضَمِنَ مِائَاتِ الْكُتُبِ الَّتِي نَسَخَهَا؟ وَكَانَ جَوَابُ جَدِّي خَضَرَ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ هَذَا الْكِتَابَ وَيُفْضِلُ أَلَّا يَنْسَخَهُ. مَاذَا يَحْدِثُ لَوْ كَانَ فِي بَيْتِنَا كِتَابُ الْكِرْهِ وَاحِدٌ؟ سَأَلَ أَبِي جَدِّي. لِجَدِّي كَانَتْ مَكْتَبَةٌ لَيْسَتْ بِصَغِيرَةٍ. وَحِينَمَا كَانَ يَعْتَرِزُ أَبِي عَلَى الْقِيَامِ بِعَمَلِ مَا فَلَا شَيْءَ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ. قَعْدَ أَبِي ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَنَسَخَ كِتَابَ الْجِدَادِ، كِتَابَ الْكِرْهِ وَعَرَضَهُ عَلَى جَدِّي.

الْجَدُّ خَضَرَ لَمَّا يَكُنْ رَاضِيًا عَنْ عَمَلِ ابْنِهِ، أَخَذَ الْكِتَابَ مِنْ يَدِي أَبِي وَأَخْفَاهُ تَحْتَ إِحْدَى الْوَسَائِدِ الَّتِي عَلَى أَحَدِ الْأَسْرَةِ. ”هَذَا الْكِتَابُ لَا مَحَلَّ لَهُ فِي مَكْتَبَتِي“، قَالَ الْجَدُّ.

”لِمَاذَا خَبَّأْتَهُ تَحْتَ الْوَسَادَةِ“؟ اسْتَفْهَرَ أَبِي.

”مِنَ الْأَفْضَلِ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ، لَا أَمْرٌ مِنَ الْمَوْتِ، عَلَيْنَا الْإِبْتِعَادُ عَنْهُ“! قَالَ الْجَدُّ. وَمِنذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ حَرَّصَ عَلَى أَنْ يَبْقَى الْكِتَابُ مَخْتَبِيًا فِي مَوْضِعِهِ الثَّابِتِ تَحْتَ الْوَسَادَةِ.

أَتظنُّ أنَّ أبِي إبراهيم الكاهن أحبُّ هذا الكتاب أكثر من جدِّي؟ لا وألف لا! في كلِّ مرَّة كان ينسخه كان يبيعه حالاً لأحد السوَّاح الذين كانوا يتردَّدون باستمرار على نابلس. وهكذا لم نعثر في تركة أبي على أيَّة نسخة من كتاب الكره. كما أخبرتك، قمت بنسخ الكتاب لي قبل بضع سنين فقط.

“